

اسقف شرب

المطران بطرس شبلي

١٨٧١-١٩١٧

بم نام الاب لانس البوعوي

في ٧ شباط سنة ١٩٠٨ ، خلف الكاهن الشاب بطرس شبلي المطران يوسف الدبس على ابرشية بيروت المارونية . وكانت اسقفية الدبس طويلة مخصصة بفضائله السامية ، وعلوه التزير ، واعماله المتعددة التي اكتسبت له اعتبار الجميع ؛ وكفى بتأسيس مدرسة الحكمة الزاهرة ، وكاتدرائية مار بروجس الفخمة لتخليد ذكراه .

اما الكاهن الذي خلف هذا الجبر الجليل المكنل بالدين والامجاد فلم يكن يتجاوز السابعة والثلاثين . وكان متحدثاً من احدى تلك العيال اللبنانية التي تحفظ تقاليد الاستقامة والدين خلفاً عن سلف . وُلد في ١٩ كانون الاول سنة ١٨٧١ ، في قرية صغيرة جميلة اسمها دفون من بلاد الشوف . وتلقى مبادئ القراءة والكتابة في مدرسة الضيعة الرضيعة ، حتى اذا ترعرع قدم بيروت ، فدخل مدرسة الحكمة تحت رعاية سلفه الصالح . على انه لم يبطل اقامته فيها . لان الرنسا . بعد ان تحقروا مواهب الطالب الصغير ، ارساله الى باريس سنة ١٨٨٥ . فدرس هناك اللغتين اليونانية واللاتينية . ثم دخل مدرسة سان سوليس الاكليريكية الشهيرة ، فاقن فيها الفلسفة واللاهوت .

وبعد ذلك انتقل الى جامعة باريس الكاثوليكية ليدرس التاريخ واللغات الشرقية كالعبرية ، والسريانية ، يونانية وغيرها . واذا رأى نفسه قد اغتنى بكتوز الثقافة الغربية ، فسّر بالعودة الى وطنه ، على الرغم مما كان يُعرض عليه ، في باريس ، من المراكز المهمة . من ذلك ان الكاهن العالم المشهور

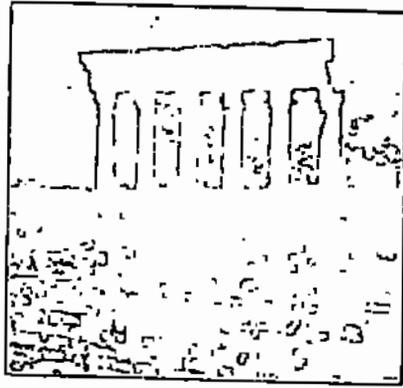


الرسم ١ : ارضة لامرئين

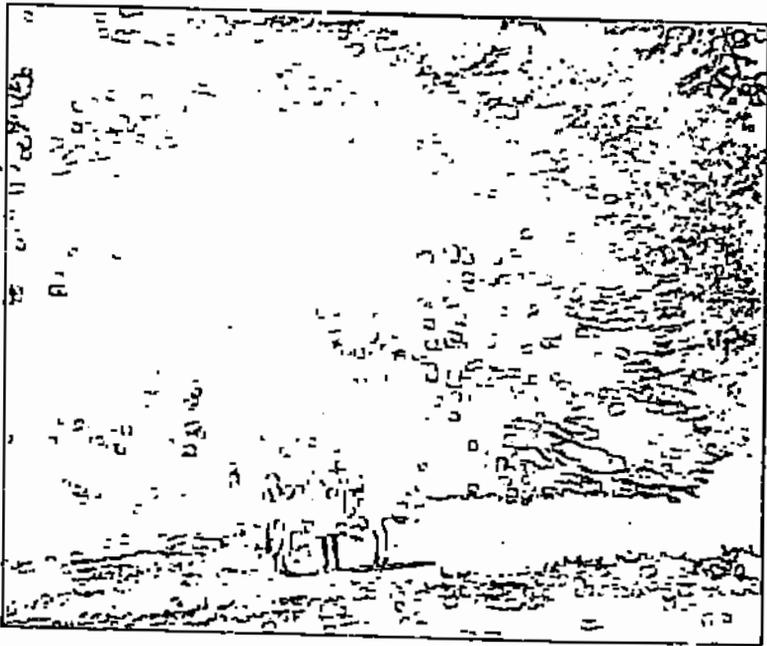


الرسم ٢ : في بحيرة اليسوفة

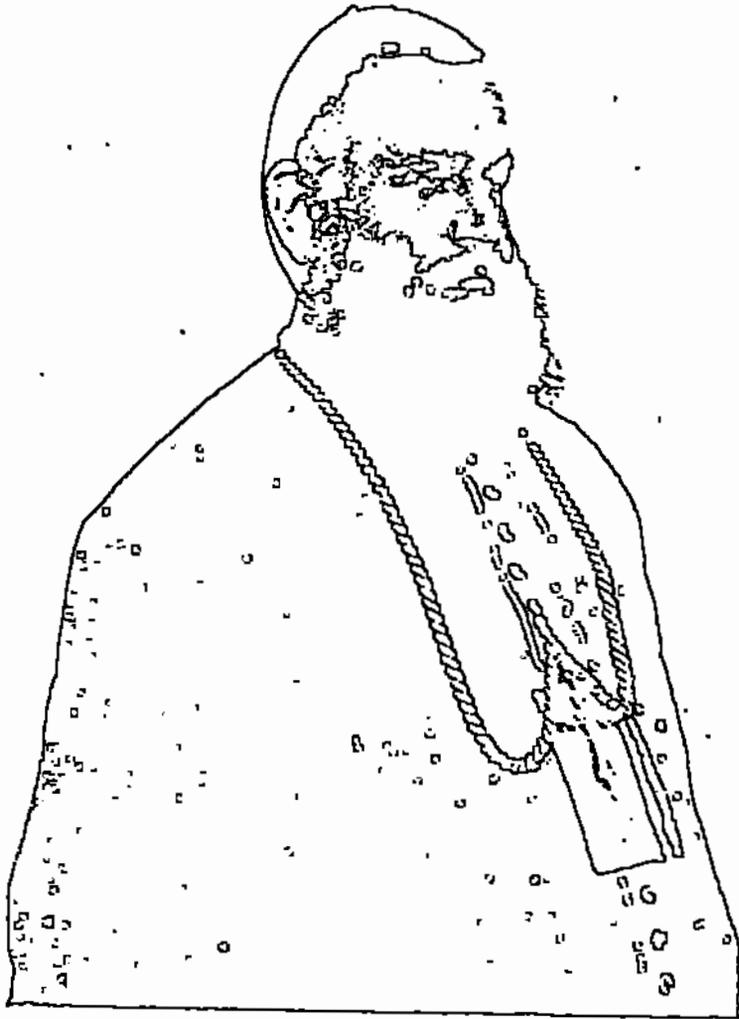
الرسم ٥ : مع صغار الطاولة



الرسم ٦: أعمدة بيليك



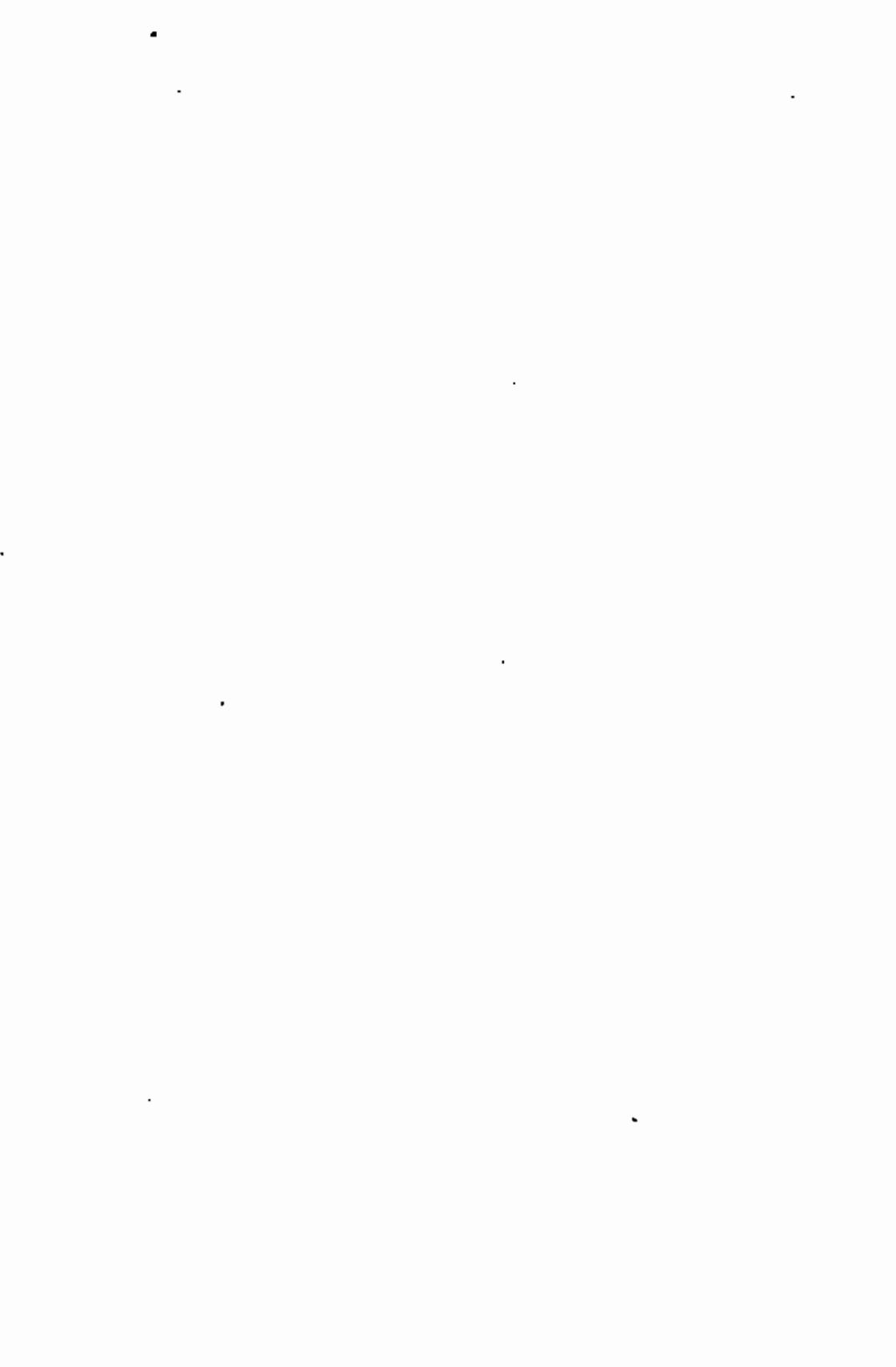
الرسم ٣: في ظلال الارز



الشيخ الرحمان

المطران بطرس شبلي (١٩١٧-١٩١٠)

رئيس اساقفة بيروت



فيگورو (Vigouroux) اقترح عليه ان يبقى معه في فرنسا ليساعده في كتابة «معجم التوراة» . فرأى الكاهن الشاب ان وطنه بحاجة اليه ، فشكر العالم المذكور ، ورجع الى بلاده حيث رسمه سيادة المطران الدبس كاهناً في ١٤ تموز سنة ١٨٩٢ .

فبدأ اعماله في لبنان ، بالقضاء الدروس في مدرسة الحكمة اولاً ، ثم في مدرسة قرنة شهبان . ولم تلبث ان سارت شهرته بعيداً حاملاً ما اتصف به من العلم والفضائل حتى الى المهاجرين ، وما اشد ما كانت حاجتهم الى امثاله من الكهنة ، فكتب اليه امين الرهباني ، رسالة من نيويورك مؤرخة في ٢٦ ايلول سنة ١٨٩٩ . وهذا قسم منها ينم عن شخص مختلف عن مؤلف «النكبات» :

«اجا الاب العزيز المحترم . . . وقد لتبتك اجا الاب المحترم «بمزب» ولا ارى ما ينبغي عن ذلك سوى العوائد لان لفظة عزيز لم يدرج استعمالها بين العوام والاكبروس . اما انا فقد تركت هذه العادة وخرقت حدود الدارج وما دفني الى هذا العمل الا فرط المحبة لشخصكم اللطيف . ولا افكن من اظهار احترامي وانخاف محبتتي التي يضطرم بها القواد لان المدة التي قضيتها مع حضرتكم والارقات التي صرفتها بجالسكم حفرت في قوايدي اثرًا عميقاً لا تمحيه الايام ما زلت حياً . وكل مرة اردد ذكركم في فكري وانتكر في حديثكم الجميل وتواضعكم الزائد وحرمتكم المتدلة يتحرك في قوايدي ذلك التأثير المزوج بالاحترام النبوي الواجب عليّ تقديره والمحبة الاخوية التي اشربها رغماً عن تفاوت المنام

« . . . كم من المرّات اجلس في غرفتي متحرراً ساهناً مزيماً نفسي بالآمال القوية فانزل آه لو كان الباروي بطرس راعيتا في نيويورك . فكلمتني بحاجة اليد هنا . والطائفة المارونية في نيويورك يلزمها راعي نبيل وعالم جليل يشعل الارشاد والوعظ وتكون كل اعماله صنيرة ام كبيرة مثلاً يقتبس منه النير ويقتدي به . نحن بنيوبرك بحاجة كلية لاب غيور عالم فاضل قوي المارضة كبير العقل واسع الذاب ، فانت انت تبحر بشخصك الكريم كل هذه الاشياء . ونحن بحاجة كلية لكم هنا فهل يمكن انقام . . . انجالضير صديقكم المخلص . انكروا بذلك وتكرّموا عليّ بالجواب » .

وفي ذلك العهد ، دعي الى البطريكية في بكركي ، لينظم سجلاتها ويوتقها ويضع لها الفهارس . وكانت العناية الالهية تقربه من الوظيفة التي كان عليه ان يظهر فيها كلّ مقدورته ، فكان غبطة البطريك يكافئه القيام برساليات مهمة . فرار سنة ١٩٠٠ قُرى بلاد البترون ليطلع على حالة الاكليروس فيها . ثم تفقّد الاديار في لبنان ، وفي جزيرة قبرس ، ليدرس احوالها ، ويثبت موارد الجزيرة ،

واقفاً على احتياجاتهم جميعها. وفي غضون ذلك ، أنف في بكركي ، كتابه عن
البطريك الدويبي وهو أثر جليل ينم عن اطلاع واسع .

كان هذا الكاهن المتواضع لا يفكر بسوى متابعة اعماله الروحية بسكون ،
اذ وقع عليه اختيار البطريك والاساقفة ليكون خلفاً للمطران يوسف الدبس .
فاحتفل ببيامته . في بكركي ، ودخل بيروت ، مركز ابرشيته ، في ٢٢ شباط
سنة ١٩٠٨ محاطاً بهتاف ابنائه جميعهم . اما في ما يخص صفات الاسقف الشاب
فاننا نترك الكلام لشاهد عيان عاشره مدة عرفه حق المعرفة ، وهو الحوري
اغناطيوس مبارك الذي خلفه ، فيما بعد ، على كرسي الابرشية نفسها . قال بعد
ان اتى على تقوى الاسقف وطهارته :

«تجردته كان عجيباً فيما يخص بدخوله الشخصي . وبقدر ما كان حريصاً حتى
ان حرصه كان يقارب البخل في ما يتعلق بال الابرشية بقدر ما كان كريماً بماله
الشخصي . واني اذكر عندما مشى امام جنازة المرحوم فيليب ثابت في بيروت
ورافق الجثة الى عين سعاده دفع له اهل القعيد مائة ليرة لقاء خدمته الشخصية
فبالحال دعاني اذ اني كنت مستلماً حسابات الكرسي وتاولني من المائة ليرة
خمين لقاء نفقات الكرسي في المأتم . وبينما كنت عائداً في تلك الساعة الى
غرفتي مع الدوام التقيت بالدار بوفد من اهالي قرية مجدليا (الشوف) اتوا ليطلبوا
من سيادته مساعدة لبناء كنيتهم فكلفني بعرض المسألة لسيادته فدخلت
للحال وعرضت عليه التماسهم وكانت الحسرة ليرة اباقية لم تزل على طاولته .
فانخذها وقال هذا المبلغ جاء بوقته اعطهم هذه الكمية الآن والله يدبر فيما
بعد . وهكذا لم يبق لذاته بارة واحدة مما اعطي له شخصياً .

«وما يدل على هذا التجرد عن المال الشخصي هو قلة ما تركه بعد وفاته
لحسابه الخاص فانه بقي اسقفاً تسع سنين فلم يترك سوى سبعة آلاف غرش
٤٤٤ قديمة شرك وكل الباقي من مداخيله كان يذهب اما لاعمال خيرية او
لمساعدات خصومية كلها مقيدة في دفتاره الخاصة .»

اما شجاعته في قول الحق ، ولستقامة ضميره فقد اورد عليها الشاهد نفسه

مثلاً تريد قيمته اذا علمنا انه صدر في زمن كان الجميع فيه يخافون على حياتهم قال:

«كان المطران بطرس شبلي رحمه الله ذا ضمير معروف فنتى عرف الحق لا يعود يجيد عنه . عندما ابتدأت الحرب ودخل بعض ذوي المآرب بدعوى زواج في ديوانه واستمانوا برضا باشا قومندان الجبل ومالأمم اعضاء الديوان ذاته بسبب مداخلة رضا باشا في المسألة وخوفهم من الديوان العربي ، بقي سيادته مصراً على الحكم بعكس ما يريده رضا باشا لان ضميره لم يكن يطاوعه . فدعاه رضا باشا اليه واخذ يابح عليه بالحكم ويسمعه بعض التهديدات ان خالف . فكان جوابه . طالما المسألة هكذا فلماذا ترغمون الدعوى الى ديواني انتم اقدر مني بالسيف فاحكموا انتم ونفذوا بيفكم اما انا فلا احكم الا بوجوب ضيري . فاسكت رضا باشا بهذا الكلام ولم يحكم الا بما نصه له الضير والوجدان.»

وقد كان يردنا ان نتوقف طويلاً فندرس عاطفة الوطنية في صدر ذلك الاسقف الجري . وقد برهن عنها مرات عديدة في مواقفه تجاه رجال تركية الفتاة ، وفي دفاعه عن استقلال لبنان ، اذ كان الاتحاديون قد اتفقوا على خرق امتيازاته ووجدوا من اللبنانيين انفسهم بعض المساعدين على ذلك . ولكنهم اصطدموا بمقاومة المطران شبلي وتدابيره السياسية الحكيمة . وقد ساعده في ذلك العراك لحفظ امتيازات لبنان بمثل فرنسا في سورية بعد ان قدروا كلهم صفات الاسقف الجليل . فظل في الميدان يناضل عن وطنه العزيز بلسانه وقلبه ، وبنفوذه الشخصي لدى الحكومة الفرنسية . قد كان يردنا ان نتبسط في كل ذلك لولا ضيق المقام ، فاكفينا بالاشارة محيلين من يرغب في التفاصيل الى ترجمة حياته المتقنة التي نشرها ابن اخيه المعامي ميشال شبلي^١ والتي استندنا اليها في كتابة هذه الاسطر .

(١) المطران بطرس شبلي ، بقلم المعامي ميشال شبلي - المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ،

في شهر ايار من سنة ١٩١٤ ، ركب المطران البحر الى فرنسة ، ليحضر المؤتمر القرباني المقام في مدينة لورد . وبينما كان في باريس اتتمت الفرصة ، فقابل وزراء الدولة الفرنسية ورغب اليهم في مواصلة الاهتمام بامر لبنان العزيز . وفي تلك المناسبة وصفته بريدة « الطان » وصفاً دقيقاً فقالت :

« . . . ان المطران بطرس شبلي هو في اَبان العمر قرويّ البنية رقيق المشعر ذو لحية سوداء ، تكثف وجهه المتدفق لطافاً ورضانة . وهو يتكلم الافرنسية بفصاحة ، وبهجة ساكنة ، وبدقة تعبير نادرة ، فيكلمك بعبارات رشيقة طليّة بليغة . وهذا الاتقان بتكلم اللغة الافرنسية يدلّ على تملكه ناصية تلك اللغة وادمانه على التحدّث بها ، حتى انك لا تحال انه اجنبي يتكلم لنتنا ، فلا يضطرّ مثلاً للتردّد قبل التأنّظ مجديته كأنه يفكر بلغة اخرى ثم يترجم افكاره وشعره . بل انه يتكلم بدون اجهاد . وما هذا سوى دليل ظاهر على ذكائه وتربيته العلية المتأزة . »

وفي فرنسة فاجأته زوبعة الحرب العالمية . فكان اول ما فكّر به ان يعود الى ابناؤه البيروتين . وكان عارفاً بمجتمد الاتراك عليه لما كان اظهر من اجتهاد في سبيل لبنان ، ومن تعلق بفرنسة ؛ فنصح له كثيرون من اصدقائه ان يبقى في اوربة ولكنه كان متأكداً ان من واجبات الراعي ان يكون بين خرافه في ساعة الخطر . فرجع الى وطنه بعد ان مرّ برومية فحضر فيها دفن البابا بيوس العاشر ؛ وحيّ خلفه بناديكنوس الخامس عشر مقدماً له احترام البطريرك الماروني وجهور طائفته .

وفي ٢٤ ايلول ١٩١٤ ، وصل الى بيروت . ولم يلبث ان بدأ حياة المذاب والاشهاد التي وصفها بالتفصيل الوافي في « مفكّرتة » . وقد نُشر منها في ترجمته اقسام طويلة شيقة . وما كان اسرع جمال باشا ، سفّاح سرورية ، في طلب المطران ومشاحته في مسألة الفرمان السلطاني الذي كان الباب العالي يريد منحه للبطريرك الماروني واساقفته ، على الرغم منهم . فبذل المطران كل ما في استطاعته في سبيل حفظ استقلال الاكليروس الماروني . ولكن لم يكن مناص من الخضوع امام القرة . على ان هذا التسليم لم يخفف من غلواء الاتراك ، فاجبروا

المطران على الاستقالة ، ثم حكروا عليه بان يُقيم بعيداً عن ايرشيتيه . وقبل كل هذه المصائب بصبر مسيحي وخضوع تام للمشيئة الالهية . وان من يطالع مفكرته ، في هذا الشأن ، يتحقق ان ذلك الصبر وذلك الخضوع لم يفارقه قط . وفي ٧ نيسان ١٩١٦ سافر المطران شبلي متجاً الى اطنه . فاقام فيها نحو السنة عرضةً لجميع اصناف المذاببات في جسده وقد أثرت فيه المتاعب ، واتحدت عليه الامراض ، وخصوصاً في نفسه الحساسة وقد تراكت عليه الاخبار المشرومة عن لبنان من جوع ، واوبئة ، واعدام ، ونفي . على انه تعزى قليلاً بوصول الحوري اغناطيوس مبارك الذي نال الاذن بمشاطرة مطرانه آلام النفي . فلم يفارقه حتى قضى الاسقف الشهيد ما قدّر له من الحياة في هذه الغائية ، فلبى دعوة ربّه في ١٩ آذار سنة ١٩١٧ .

لم تقارب سنة ١٩١٨ الانتهاء حتى تقلّس ظلّ الاتراك فاحتلّ الفرنسيون قيليقية واقاموا فيها مدة ؛ وكان سيادة المطران اغناطيوس مبارك لا يفتأ يذكر سالفه الشهيد ويصمى بنقل رفاته الى بيروت ، لتجمع الى رفات اساقفتها ، فيستريح مع سلفائه الصالحين . فنال ما تمنّاه ، واهتم الفرنسيون باقامة هذا الواجب . فظلّ النمش بالعلم الفرنسي ، ونقل الى مرسين ، حيث اتزل الى دارعة افرنسية ، فحقته فيها ثلة من الجند بالتحية العسكرية ، وسارت به الى بيروت . فوصلتها في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢١ . وكان ذلك اليوم اشبه بيوم مهرجان اذ اشترك الشعب على اختلاف طبقاته مع الحكومة الفرنسية والحكومة اللبنانية ، بتأدية واجب الاحترام والاجلال للشهيد الكبير . واذ عرض النمش في كاتدرائية مار جرجس ، وقد ظلّته الازيتان اللبنانية والفرنسارية ، وقف تجاهه سيادة المطران مبارك ، وآبن ذلك الذي كان بفضائله وعلمه فخرًا لشعبه ، وعامياً عن وطنه ، وشهيداً في سبيل حريته .

